الباب السادس
الأناجيل

الإنجيل

الإنجيل كلمة يُونانية بمعنى الخبر السعيد أو البِشارة، وقد تداول المسيحيون في القرن الأول عشرات النسخ من الأناجيل، ثمُ اعتمد آباء الكنيسة أربع نسخ منها بالاقتراع أي بكثرة الأصوات وهي: إنجيل مُرقس، وإنجيل مَتَّى، وإنجيل لوقا، وإنجيل يوُحناَّ مع طائفة من أقوال الرسل المُدونة في العهد الجديد.

ويرُجح المؤرخون المختصون بهذه المباحث أن الأناجيل جميعًا تعتمد على نسخة آرامية مفقودة يشيرون إليها بحرف «ك» مختزلة من كلمة كويل Quelle بمعنى الأصل،ومنهم من يسُمي هذه النسخة «لوجيا» Logia بمعنى الأقوال، ويرُيدون بها الأقوالَّ الشفوية التي سُمعت ثمُ كُتبت على القول الراجح عندهم باللغة الآرامية، ويعللون اتفاق مَتَّى ولوقا في بعض النصوص باعتمادهما معًا على تلك النسخة المفقودة.

أما الأناجيل الموجودة الآن فقد كُتبت جميعًا باليونانية العامةKoine ، ولوُحظ في ترجمتها أنَّها تعتمد على نصوص آرامية، وتحُافظ على ما فيها من الجناس، وترادف المعاني، والمفردات، وتتفق الآراء على أن هذه الأناجيل لا تحتوي على ما فاه به السيد المسيح، إذ جاءت في أعمال الرسل التي تضمنها العهد الجديد كلمة منسوبة إلى السيد المسيح لم ترد في الأناجيل، وهي: «تذكروا كلمات المسيح: إن العطاء مغبوط أكثر من الأخذ»، وجاءت في الأناجيل الأخرى التي لم تعتمد كلمات من هذا القبيل، وكشفت أوراق بردية في مصر ترجع إلى منتصف القرن الثَّاني لا تشُبه الأناجيل المعتمدة في نصوصها .

وتتفق الآراء أيضًا على أن نسُختين من الأناجيل كتبهما مسيحيان لم يجتمعا بالسيد المسيح ولم يسمعا منه، وهما: نسخة مُرقس التي دون فيها ما سمعه من بطرس الرسول بغير ترتيب، وعلى غير قصد منه أن تجُمع في كتاب، وقد كتبها في رومة بعد مقتل الرسول، وليس معه أحد من التلاميذ، ويتراوح تاريخ كتابتها بين سنتي سبع وستين وسبعين.

والنسخة الأخرى هي نسخة لوقا صاحب بولس الرسول، دون فيها ما سمعه منه، ولعله أضاف إليها جزءًا من النُّسخة المفقودة، ثمُ جزءًا من إنجيل مُرقس بعد اطلاعه عليه، وكانت كتابتها على الأرجح سنة ثمانين.

أما إنجيل يوُحنا فهو آخر الأناجيل كتابة ومُراجعة، وأكثر النُّقاد على أنَّه مكتوب بقلم يوُحنا تلميذ السيد المسيح، وآخرون يعتقدون أنَّها بقلم يوُحنا آخر كان من أفسس، ولم يرَ السيد المسيح، لأن يوُحنا تلميذ المسيح هو صاحب سِفْر الرؤيا المُؤلفِّ على أصح الأقوال في

سنة ست وتسعين، ولا يظُن أن مؤلفًا واحدًا يكتب في وقت واحد كتابين بينهما مثل ذلك التباين في المنهج والفحوى.

على أن الأب فرار فنتون مُترجم الإنجيل «طبعة أكسفورد» يعن له أن إنجيل يوُحنا هو أقدم الأناجيل، وأنَّه كتبه أولاً بالعبرية بين سنة ثلاثين وسنة أربعين، ثمُ نقله إلى اليونانية، ولكن تأخر الزمن الذي كتب فيه هذا الإنجيل ثابت من تفصيله بعض ماأجملته الأناجيل، وزيادته في التعبيرات الفلسفية، وتوسعه في شرح العقائد التي أثرت عن بولس الرسول، ولا يظُن أنَّه كُتِبَ قبل سنة ست وتسعين.

والترتيب المُضل عند المؤرخين أن إنجيل مُرقس هو أقدم الأناجيل، ثمُ يليه إنجيل مَتَّى فإنجيل لوقا، وهي الأناجيل الثلاثة التي اشتهرت باسم أناجيل المقابلة، لإمكان المقابلة بين ما فيها من الأخبار والوصايا على اختلاف الترتيب، مع العلم بأنّها كُتبت في الأصل مُرسلة بغير أقسام، وبغير مواضع للوقت والإلحاق، ولم تقُسم إلى إصحاح اتقبل القرن الثالث عشر للميلاد.

وليس من الصواب أنْ يقُال إن الأناجيل جميعًا عمدة لا يعُول عليها في تاريخ السيد المسيح، لأنَّها كُتبت عن سماع بعيد، ولم تكُتب من سماع قريب في الزمن والمكان،ولأنَّها في أصلها مرجع واحد متعدد النقلة والنساخ، ولأنَّها روت من أخبار الحوادث مالم يذكره أحد من المؤرخين، كانشقاق القبور، وبعث موتاهم، وطوافهم بين النَّ اس، وماشابه ذلك من الخوارق والأهوال.

وإنَّما الصواب أنَّها العمدة الوحيدة في كتابة ذلك التاريخ، ومواطن الاختلاف بينها معقولة مع استقصاء أسبابها والمقارنة بينها وبين آثارها، ورفضها على الجملة أصعب من قبولها عند الرجوع إلى أسباب هذا، وأسباب ذاك.

فإنجيل مَتَّى مثلًا ملحوظ فيه أنَّه يخُاطب اليهود، ويحُاول أن يزُيل نفرتهم من الدعوة الجديدة، ويؤُدي عباراته أداء يلُائم كنيسة بيت المقدس في منتصف القرن الأول للميلاد.

وإنجيل مُرقس على خلافٍ ملحوظٌ فيه أنَّه يخُاطب «الأمم»، ولا يتحفظ في سرد الأخبار الإلهية التي كانت تحول بين بني إسرائيل «المحافظين»، والإيمان بإلاهية المسيح، وإنجيل لوقا يكتبه طبيب، ويقُدمه إلى سَرِي كبير، فيوُرد فيه الأخبار والوصايا من الوجهة الإنسانية، ويحضر في ذهنه ثقافة السري الذي أهدى إليه نسخته وثقافة أمثاله من العلية.

وإنجيل يوُحنا غلبت عليه فكرة الفلسفة، وبدأه بالكلام عن «الكلمة»Logos ،ووصف فيه التجسد الإلهي على النحو الذي يألفه اليونان، ومن حضروا محافلهم، ودرجوا معهم على عادات واحدة.

وسواء رجعت هذه الأناجيل إلى مصدر واحد، أو أكثر من مصدر، فمن الواجب أنْ يدخل في الحسبان أنَّها هي العمدة التي اعتمد عليها قوم هم أقرب النّاس إلى عصرالمسيح، وليس لدينا نحن بعد قرابة ألفي سنة عمدة أحق منها بالاعتماد.

ونحن قد عولنا على الأناجيل، ولم نجد بين أيدينا مرجعًا أوفى منها لدرس حياة الرسول والإحاطة بأطوار الرسالة وملابساتها، ولكنَّنا نتبع في مراجعتها طريقة غيرالتي درج عليها مُؤرخو الوقائع والأخبار، فلا نرُاجعها من حيث هي وقائع تاريخية،ولا من حيث المقاصد التي أرادها كتابها ورواتها، ولكنَّنا نجمع الوقائع والأخبار، ونسأل عما وراءها من الإبانة عن شخصية الرسول، وفي هذه المراجعة تنفعنا الوقائع المستغربة، كما تنفعنا الوقائع المألوفة، وتهمنا الأغراض المقصودة وغير المقصودة.فهل وراء هذه الأخبار «شخصية متناسقة» مفهومة؟ إنْ كانت هناك علامات على تلك الشخصية المُتناسقة، فحسبنا ذلك من جميع الوقائع والأخبار، وعلينا أنْ نفهم هنا أن النقائض في هذه المراجعة قد تكون من أسباب التصديق، ولا تكون من أسباب الشك والإنكار، ثم يتأتَّى لنا أنْ نجعل هذه الشخصية نفسها محك الكل واقعة، ولكل خبر،ولكل كلمة مروية، فما خرج من السواء فهو فضول.

ومن الأمثلة على الاختلاف بين هذه الطريقة وبين طريقة المؤرخين الذين يطلبونَّ الوقائع لذاتها أن الغرائب هنا شيء يجب أن نبحث عنه، إنْ لم نجده ماثلًا بين أيدينا،

فإن خلو هذا التَّاريخ من الغرائب هو الذي يسُتغرب، وليس هو المألوف الذي يدعو إلى الترجيح أو اليقين. وهل يخلو من الغرائب سجل قوم يؤُمنون بها،ولا يشكون فيوجودها؟

ونحب هنا أنْ نبين موقفنا من الخوارق والمعجزات حيث وُجدت في تواريخ الأديان،فنحن نسأل: هل هذه المعجزة لازمة في تفسير مسألة من المسائل؟ فإنْ كان تفسيرالمسألة ميسورًا بغيرها، فلا حاجة بنا إلى الجدل في إمكانها أو استحالاتها، لأن التَّفسيرالذي يقبله كل إنسان يغُني عن التَّفسير الذي يضطرنا إلى امتحان الممكنات، وامتحان الرواة.

أما رأينا نحن في إمكان المعجزات فهو رأينا في إمكان جميع الأسباب، فإن العقل قاصر على تعليل الحوادث بأسبابها، وليس من العقل أنْ يقُال: إن هذه الأسباب المُسماة بالطبيعة هي العوامل الفعالة في إيجاد الأشياء، وأصح ما يقُال فيها قول الغزالي - رَحِمَهُ ٱللَّهُ- إن الأسباب والمسببات تحدث معًا، ولا تزيد علاقتها بعضها ببعض على علاقة المصاحبة والتوافق في الأوقات، وإلا لزم أنْ تكون المادة ألُوفًا من المادات، كل منها مستقل بخصائصه ومؤثراته وعلاقته بالمواد الأخرى، ولا يقول بذلك عقل سليم، فإذاكان العقل لا يعُلل الأسباب الطبيعية فمن الشطط أن يتعجل بإنكار المعجزات والجزم باستحالتها.

ومتى ناقشناها فلتكن مناقشتنا لها كمُناقشة الأسباب: هل هي لازمة لتفسير هذه المسألة؟ وكما نقول: هل هذا السبب لازم؟ نقول أيضاً: هل هذه المعجزة لازمة للفهم والتفسير؟ وبهذا القسطاس يجب أن توُزن الحوادث، ويدرس تاريخ الأديان وغيرالأديان.

ونحن لم نتعرض للمعجزات التي وردت في الأناجيل، لأن تفسير الحوادث منساق لنا بغيرها، فليس في الأناجيل أن مُعجزات الميلاد حملت أحدًا على الإيمان بالرسالة المسيحية بعد قيام السيد المسيح بالدعوة، وكثيراً ما نقرأ فيها أن المُعجزة لا تقُنع المُكابر، وأن الجيل الشرير يطلب الآية ولا يعطاها، وأن المُنكرين كانوا يعُجبون لمايرونه أحياناً، ولكنَّ هم كانوا يزعمون أنَّه مِنْ فعل الشيطان، بل كان من أسباب التعجيل بمصادرة المسيح أنَّه، كما قال الكهنة، يصنع كثيراً من المعجزات.

وبعدُ، فمن الحق أنْ نقول: إن مُعجزة المسيح الكبرى هي هذه المعجزة التاريخية التي بقيت على الزمن، ولم تنقض بانقضاء أيامها في عصر الميلاد: رجل ينشأ في بيتٍّ نجار في قرية خاملة بين شعب مقهور، يفتح بالكلمة دولاً تضيع في أطوائها دولة الرومان، ولا ينقضي عليه من الزمن في إنجاز هذه الفتوح ما قضاه الجبابرة في ضم إقليم واحد، قد يخضع إلى حين، ثمُ يتمرد ويخلع النَّير، ولا يخضع كما خضع النَّاس للكلمة بالقلوب والأجسام.

شراح الأناجيل

عني الشراح الإنجيليون عناية دقيقة مضنية بترتيب الحوادث في سيرة السيد المسيح – عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ– كما تستمد من روايات الأناجيل، ولكنَّهم لم يصلوا إلى ترتيب متفقَّ عليه، لأن سياق الحوادث مختلف في الأناجيل الأربعة، وبعض الأناجيل قد سجلت ماسمعه كتابها في أوقات متفرقة حسبما عرض لهم من مناسبات الرواية لا حسب تسلسل الأزمنة التي وقعت فيها الحوادث، فلم يتفق ترتيب الكتابة، وترتيب الحدوث.

على أن حوادث السيرة فيها ما يظهر منه أنَّه مُقدمات، وما يظهر منه أنَّه نتائج لاحقة لتلك المُقدمات، فإذا حسبنا بعضها نتيجة لبعض على حسب المعقول من آثارالحوادث، أمكن على الترجيح مُتابعة السيرة المسيحية في خطوطها الكبرى، ولا يضيرنابعد استقامة هذه الخطوط أنْ تختلف أوضاع الحوادث التي يمُكن أنْ تضُاف إلى كلفترة دون أن يتغير سياق السيرة كله، أو يتغير جوهر الموضوع الذي تدور الحوادث عليه.

كان لقاء المسيح ليوُحنا المعمدان مفرق الطريق في السيرة المسيحية.

ولم تذَكُر لنا الأناجيل من أخبار نشأة المسيح عليه السلام قبل ذلك اللقاء غير حادثتين اثنتين، إحداهما حادثة السفر إلى مصر وهو رضيع، والأخرى حادثةالسفر إلى بيت المقدس وهو في الثانية عشرة من عمره.

روى الحادثة الأولى إنجيل مَتَّ ى فقال «إن ملاك الرب ظهر ليوسف في حلم قائلًا:قُم وخذ الصبي وأمه واهرب إلى مصر، لأن هيرود مزمع أنْ يطلب الصبي ليهُلكه، فقامَ وأخذ الصبي وأمه ليلًا وانصرف إلى مصر، وبقي فيها إلى وفاة هيرود» ثم قال: «وقتل هيرودس جميع الصبيان الذين في بيت لحم وتخومها من ابن سنتين فما دونها».

ولم يذكر خبر هذه المذبحة في غير إنجيل مَتَّى، ولا يعرف الآن سبب وجود الأسرة في بيت لحم –وهي من الناصرة – لأن الإحصاء الذي أشار إليه إنجيل لوقا وقال إنَّهٌ سبب انتقال كل أسرة إلى منيتها قد تقرر في السنة السادسة للميلاد، وحدثت من جرائه ثورة عنيفة على عهد وإلي سورية كرينيوس.

أما الإنجيل الذي توسع في وصف طفولة السيد المسيح فهو إنجيل لوُقا الذي روى أخبار ختانه وتسميته والسفر به إلى بيت المقدس: « فلما تمت ثمانية أيام ليختنواَ الصبي سمي

يسوع» وتمت أيام التطهير حسب الشريعة الموسوية «فصعدوا به إلى أورشليم ليقدموه للرب، ويقدموا ذبيحة: زوج يمام، أو فرخي حمام»، وهي القُربان المقبول من الفقراء.

قال إنجيل لوُقا:»وكان أبواه يذهبان كل سنة إلى أورشليم في عيد الفصح، فلما كانت له اثنتا عشرة سنة صعدوا إلى أورشليم كعادة العيد، وبقي الصبي عند رجوعهما في أورشليم، ويوسف وأمه لا يعلمان، وإذ ظناه بين الرفقة، ذهبا مسيرة يوم، وكانا يطلبانه بين الأقرباء والمعارف، ولما لم يجداه رجعا إلى أورشليم يطلبانه، فوجداه بعدثلاثة أيام في الهيكل جالسًا في وسط المُعلمين يسمعهم ويسألهم، وكل الذين سمعوه بهُتوا من فهمه وأجوبته، فلما أبصراه دُهِشَا، وقالت له أمه: يا بني لماذا فعلت بناهكذا؟ فقال لها: «لماذا كُنتما تطلبانني؟ ألم تعلما حيث ينبغي أن أكون قيمًا لأبي» فلم يفهما الكلام الذي قاله لهما، ثم نزل معهما، وجاء إلى النَّاصرة، وكان خاضعًا لهما،وكان يتقدم في الحكمة والقامة والنعمة عند لله والنَّاس».

ولا يذكر الإنجيل شيئاً عن نشأة الصبي بعد ذلك إلى أنْ بلغ الثَّلاثين، وظهر يوُحنا «بمعمودية التوبة لمغفرة الخطايا»، وحينئذ جاء يسوع من الجليل إلى الأردن، ليعتمد منه – كما ورد في إنجيل مَتَّى – فمنعه يوُحنا قائلًا: أنا محتاج أنْ أعتمد منك، وأنت تأتي إليَّ ؟ فأجابه يسوع: تسمح الآن، لأنَّه هكذا يحُمل بنا أن نستوفي كل بر. فسمح له،َّ فلما اعتمد يسوع، صعد للوقت من الماء، وإذا السماوات قد انفتحت له، فرأى روح لله نازلاً مثل حمامة، وآتياً عليه، وصوت من السماوات يقول: هذا هو ابني الحبيب.

وفي إنجيل غير الأناجيل الأربعة المعتمدة – وهي إنجيل العبريين – رواية عنهذه الفترة من سيرته عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ جاء فيها أن أمه وإخوته قالوا له: إن يوُحنا المعمدان يوُالي التعميد، لغفران الخطايا، فَهَلمُ بنا إليه ليعمدنا. فقال لهم: «أي خطيئة جنيتُ حتى أذهب إليه لتعميدي؟! اللّهم إلا أن يكون هذا القول الذي قُلت».

وليس في الأناجيل، ولا في غيرها خبر عن تعليم السيد المسيح في طفولته قبل الثانية عشرة وبعدها، ولكنَّه بالقياس إلى نظام التربية في ذلك العصر يبدأ في مكتبٍّ ملحق بالبيعة في كل قرية كبيرة يشُرف على بيعتها «حزان» أو «خزان» بمعنى الخازن والحارس، ويندر في المكتب حصول التلميذ على النُّسخ المخطوطة من الكتب الدينية غير نسخة البيعة المعدة للتِّلاوة منها في الصلوات، وللاستعانة بها على تعليم التلاميذ الصغار، ومعولهم جميعًا على الحفظ والاستظهار.

لقد كانت كل أسرة يهودية تتمنى في ذلك العصر أن يخرج منها المسيح المنتظر،وقد سُمي الطفل يسوع أو «يهوشع» على هذا الأمل؛ لأن الاسم مُركب من كلمتين تفُيدان معنى سعي «يهوا»، أو نجدة «يهوا»، أو خلاص «يهوا»، فتربَّى الطفل تربية دينية خالصة، ولا يصعب علينا تعليل سفر الأسرة إلى بيت لحم عند مولده، لأنَّها تنتظرالمعجزة هناك، حيث ورد في أسفار من النبوءات أن بيت لحم هي مولد المسيح الموعود؛لأنَّها موطن داود.

ولا يبعد أن الصبي المُبارك وكان في الثَّانية عشرة من عمره، قدوعَى جميع الدروس التي يتعلمها الصغار في مدارس القرى، واستمع إلى شيء جديد من فقهاء الهيكل وأحباره، فتاقت نفسه إلى استيعابه، ونسي أهله وموعد عودتهم إلى قريتهم، وهو يتنقل بين دروس الفقهاء والأحبار.

ويغلب على الظن أنَّه كان على صلة وثيقة بيوُحنا المعمدان، وأن يوُحنا قد رآهوعرفه، وعرف فضله وطهارة سيرته قبل أن يلقاه في الأردن عندما تصدى لرسالة التعميد، وهي بطبيعتها رسالة إعداد وتمهيد.

ومن البديهي أن كلمات يوُحنا مع الفتى ابن الثَّلاثين في ساعة التعميد لم تذهب بغير صداها في نفسه الواعية، فمن أيسر آثارها في مثل تلك النَّفس أن تعُزز فيها الأمل، وتدعم فيها اليقين، وتبعثها على التأمل فيما خلقت له، وفيما ترجوه ويرجى منها بين البشائر والنذر التي ترددت يومئذ في كل مكان، وعلى كل لسان.

وخلوة البرية هي إحدى نتائج التَّحية النَّبوية، وهي خلوة التَّجربة، والامتحان، والتساؤل، والاستيثاق التي عالجها كل نبي قبل أن يصدع بما أُمِرَ به، وقبل أن يستيقنَّ أن ما أُمِرَ به من عند الله.

ونعتمد في وصف هذه التجربة على رواية إنجيل مَتَّى حيث يقول: «إنَّه – عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ– بعد أن صام في البرية أربعين ليلة، جاع أخيراً، فتقدم به المجرب، وقالله: إن كُنتَ ابن لله فقل لهذه الحجارة تصير خبزاً، فأجابه: مكتوب أنَّه ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، بل بكلمة تخرج من فم لله. ثمُ أخذه إبليس إلى المدينة المقدسة، وأوقفه على جناح الهيكل، وقال له: إنْ كُنتَ ابن لله فاطرح نفسك من علٍ، لأنَّك موعود أن يوُصى ملائكته بك ليحملوك على أيديهم، فلا تصطدم رجلك بحجر. قال يسوع: ومكتوب أيضًا ألا تجُرب الرب إلهك، ثمُ

أخذه إبليس إلى جبل عالٍ، وأراه جميع ممالك العالم ومجدها، وقال له: أُعطيك هذه جميعها، إنْ سجدت لي. قال يسوع: اغْرُب عنِّي أيُّها الشيطان، فإنَّه مكتوب للرب إلهك تسجد، وإيَّاه وحده تعبد».

قال إنجيل مَتَّى بعد ذلك: ولما سمع يسوع أن يوُحنا أسلم لهيرود انصرف إلى الجليل، وَترَك النَّاصرة وسكن في كفر ناحوم، وابتدأ رسالته داعياً إلى التوبة، لأنَّه قدَّ اقترب ملكوت السماوات.

كان لقاء يوُحنا المعمدان مفرق الطريق في السيرة المسيحية كما أسلفنا، فكانت سيرة الفتى المؤمن قبل ذلك اللقاء تأهباً واستعدادًا وأملًا، وكانت سيرته بعد اللقاء رياضة وامتحاناً وعزيمة، وردته كلمات النَّبي النَّذير إلى طويته يسبر أغوارها، ويمتحن صبرها، ويسُائلها، ويسُائل الغيب، ليهديه إلى كُنه رسالته، ومصدر بعثته، وتوُسوس له التجربة أنْ يطلب الآية، ويلمس الدليل، وكل تجربة من هذه التجارب التي مثلتها بساطة الرواية الإنجليزية تدور على سر الرسالة المسيحية وما أحاط بها في كُتب القُدامى من البشائر والمواعيد، ألم يكن رجاء النَّاس من المسيح الذي ينتظرونه أن يعم الخير، ويبطل العناء في طلب الأرزاق، ويصبح الخبز لقي لمن يطلبه كحجارة الطريق؟ ألم يكن من مواعيد المسيح أن يقُبل على السحاب محمولاً على أجنحة الملائكة؟ ألم يكن من مواعيده ملك العالم بالتَّاج والصولجان؟ كل تجربة من هذه التَّجارب كانت هي التَّجربة التي تسُاور ضميراً مشغولاً بالرسالات المسيحية، واقفًا على قمة الإيمان وشفا الهاوية. وفي لحظة واحدة، تغريه من هنا رسالة جسد، وسلطان ومساومة على البراهين والآيات، وتعصمه من هنا رسالة روح، وقداسة ويقين لا يسُاوم على البرهان.

أتكون كلمات يوُحنا للمسيح أول وحي نبوي بالرسالة المسيحية؟

واضح غاية الوضوح أن هذه الكلمات الحية لم تطرق مسامعه إلا وقد فتحتفي نفسه الصافية باباً للتأمل والتساؤل، وأن فترة الخلوة في البرية على أثر ذلك كانت فترة اعتكاف لاستخلاص الحقيقة من أعماق الضمير، والاستعانة بالصيام والتهجد على مُناجاة الغيب، والاستقرار على عزيمة خالصة للإقدام على خطوة حاسمة يريدها لله، ويبطل فيها الإبهام والإحجام.

وعندنا أن أنفس خبر يعُين على التعريف بمنهاج الإيمان في نفس الرسول العظيم هو هذا الخبر عن تجربة الوحدة في البرية، فهو يفُسر لنا مواقف السيد المسيح جميعاً قبل الإقدام على خُطواته الحاسمة، أو يفُسر لنا منهاج الإيمان بدواعي العمل في ضميره السليم.

إنَّه إذا أقدم على أمر من الأمور الحاسمة أطال التَّفكير فيه، ولم يزل يطُيل التَّفكير فيه، ويقلب وجوه الروية والمُراجعة حتى يخطر له أن العمل مرهون بانتظار آية يستوثق بها من إرادة الله، وعندئذ يبادر إلى نبذ هذا الخاطر بغير هوادة، لأن العامل الذي يتوقف عمله على انتظار آية ضعيفُ الإيمان، ومن كان قوام نفسه أن مثقال حبَّ ةخردل من الإيمان ينقل الجبل من مكانه، ويخلع الشجر من منبته، فلن يكون إيمانه معتمدًا على آية يراها قبل أن يعمل عمله ويتجرد لمقصده، وبخاصة حين يبدو للنَّفسَّ أن الآية مُنتظرة لاتقاء الخطر، وضمان الأمان. فالخطر إذن أحب من الشك، وكل شيءإذن أسلم من الأمان الذي لا يأتي بضمان من البرهان.

وكلما بلغ السيد المسيح من تفكيره ورويته هذا الحد الفاصل، فمنهاجه الجدير به هو استخارة الحوادث، واستلهام الغيب من هذا الطريق، ليفعل ما يتوقاه، ولا يشَترط شرطاً للوقاية، وليفعل لله ما يشاء، فما يجري بعد ذلك كله هو إرادة لله.

خرج السيد المسيح من العزلة إلى الرسالة، ولم يقل لأحد إنَّها رسالة مسيح، بل سكت عن ذلك حتى تسامع النَّاس بدعوته، وأصبح له أكثر من ثمانين تلميذًا يبُشرون برسالته، ويستمدون الهداية من وحيه.

واصطبغت رسالته الأولى في الجليل بصبغة مميزة وهي صبغة الرسالة القومية إلى إسرائيل، وحرص عليه السلام أشد الحرص ألا يثُير النَّاسَ على السلطان الحاكم، ولا يثُير السلطان الحاكم عليه، فكان يؤُثر المباعدة والتقية ما استطاع، حتَّي يبلغ الكتاب أجله، وآن أن يمضي في خطوة أخرى بعد الخطوة الأولى التي انتقل بها من العُزلة إلى الدعوة بين بني إسرائيل، فهذه الخُطوة التَّالية هي الدعوة الإنسانية العامة، وهي استخارة للحوادث واستلهام للغيب في ميدان أوسع وأبقى، وعلى الصفة التي ثبتت له في طوية ضميره، وهداه إليها وحي لله، ولم يبقَ إلا أن تؤيدها حوادث القدر كيف شاء.

أما الصفة التي تثبت له عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ في طوية ضميره، فقد تكررت في كلامه عن نفسه على صور شتى، فهو نور العالم وخبز الحياة، والكرامة الحقيقية، وهو ابن الله وابن الإنسان.

والأبوة الإلهية قد وردت في مواضع مُتعددة في كتب الأنبياء، فجاء في سفر التكوينَّ أن الملائكة أبناء لله،» وأن أبناء الله رأوا بنات النَّاس حسنات فاتخذوا منهن زوجات» (6تكوين.)

وورد في كلام موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ أن بني إسرائيل جميعاً أبناء لله، حين قال لفرعون: «دع ابني يخرج» ووردت بهذا المعنى في كُتب أخرى كسفر التثنية، حيث جاء فيه:»أنتم أبناء لله» (تثنية ١٤) وأشير إلى الشعب كله بأنَّهم أبناؤه وبناته (٢٣تثنية).. ووردت كذلك غير مرة في المزامير حيث قيل:» قدموا للرب يا أبناء الله» (٢٩)، و«من يشُبه الرب بين أبناء لله» (89).

وكذلك وردت في هوشع، وجاء فيه من خطاب الشعب: «أنتم أبناء الله الحي».

أما في العهد الجديد، فمُخاطبة لله باسم الأب وردت في الصلاة التي تبتدئ بدعاء الله «أبانا الذي في السماوات»، وحيث قال السيد المسيح للتلاميذ إن «أباكم واحد هوالذي في السماوات»، حيث تكلم عن ولادة الروح وولادة الجسد، وكل ولادة للروح فهي بنوة الله.

أما ابن الإنسان فقد وردت في كتب العهد القديم باللغة الآرامية وباللغة العبرية، وهي بالآرامية «بارناشا»! من بار بمعنى ابن، وناش بمعنى إنسان، وهي بالعبرية «ابن آدم»، وتطُلق في كلتا اللغتين على الإنسان الخالص، أو على الإنسان من حيث هو نوع يقُابل أنواع الأحياء.

وقد وردت تسعين مرة في سفر حزقيال، حيث يخاطب «يهوا» ذلك الرسول فيناديه بابن الإنسان.

ووردت مرة في سفر دنيال بلسان جبريل، وهو يخاطب النبي باسم ابن الإنسان(8).

ووردت في هذا السفر باللغة الآرامية حيث يتكلم عن مخلوقات بصور الحيوانات،ثم ينُبئ عن رسول يأتي في صورة إنسان رآه النبي في رؤى الليل «على سحاب كابن إنسان» جاء بسلطان لن يزول.

أما في كُتب العهد الجديد، فقد وردت في مواضع بمعنى «الإنسان»، منها قول السيد المسيح في إنجيل مَتَّى: «كل خطيئة وتجديف يغُفر للنَّاس، ومن قال كلمة على ابن الإنسان يغُفر له، وأما من قال على الروح القُدس فلن يغُفر له، لا في هذا العالم،ولا في العالم الآتي»(12).

وقد جاءت أحياناً مرادفة لضمير المتكلم «أنا» حين يتكلم السيد المسيح عن نفسه، فجاء في لوقا 12...»كل من اعترف بي قدام النَّاس يعترف به ابن الإنسان قدام ملائكة الله» وجاء في مَتَّى 10: «كل من يعترف بي قدام النَّاس أعترف أنا أيضًا به قدام أبيَّ الذي في السماوات».

وورد في مَتَّى 16:»إنَّه لما جاء يسوع إلى نواحي قيصرية فيلبس سأل تلاميذه قائلًا: من يقول النَّاس إنِّي أنا ابن الإنسان»؟.

وورد في مُرقس ٨: «ثم خرج يسوع وتلاميذه إلى قرى قيصرية فيلبس، وفي الطريق سأل تلاميذه قائلًا: من يقول النَّاس إنِّي أنا؟».

فهي في بعض الأناجيل مرادفة أو بديل من ضمير المتكلم حين يتكلم السيد عن نفسه، ولابد أن يلُاحَظ هنا أن التَّلاميذ قد عرفوا استخدامها في هذا السياق، فلم ينُادوا السيد المسيح قط باسم ابن الإنسان.

وقد وردت حيناً بمعنى يشُبه معناها في نبوءة دنيال حيث قال: «كما يجُمع الزوان، ويحُرق بالنَّار، هكذا يكون في انقضاء العالم، ويرُسل ابن الإنسان ملائكته، فيجمعون من ملكوته جميع المعاثر والآثمين» (مَتَّى 13).

وهي إشارة كإشارة دنيال إلى يوم الدينونة، وصيغتها بالآرامية واحدة في الموضعين.هذه هي الأسماء التي تسَمى بها السيد المسيح في إبان دعوته الأولى أو عند نهايتها، وفي أثناء هذه الدعوة كان يدُعَى بالمُعلم الصالح أحياناً فيقول: «لماذا تدعونني صالحاً؟ ليس أحد صالحاً إلا واحداً، وهو الله».

وعند نهايتها سأل تلاميذه عما يقوله النَّاس عنه، فلما قال له بطرس: إنَّك أنت المسيح ابن لله باركه، ثمُ أمرهم بالكتمان.

وغني عن القول أن هذه الأسماء إنَّ ما كانت تفهم كما تعود قراء الكتب الدينية أنْ يفهموها في ذلك الحين، ولم يوصِ السيد المسيح تلاميذه أنْ يفهموا منها غير ذلك حين يذكرون «ابن لله» أو «ابن الإنسان».

***

لو جرت الأمور في مجراها الذي استقامت عليه الدعوة في الجليل من بعد الرسالة المسيحية، لمضت هذه الرسالة في طريقها سنوات دون أن تشتبك في حرب صراح معدولة الكهانة في بيت المقدس.

ولكن الحوادث حكمت حكمها في السنة التي تحسب الآن سنة ثلاثين للميلاد، وحان موعد عيد الفصح، وزيارة بيت المقدس، كما جرت عادة الأسر اليهودية، ومنها أسرة السيد المسيح: أمه وإخوته وذوو قرباه.

وكان عليه السلام يجُاري أسرته في هذه الشعائر التي لا ضير فيها، ولم يكن يضُيِّق على النَّاس في المحافظة على المأثورات التي تعودوا أن يحتفلوا بها، ويفرحوافيها بالاجتماع، وتبادل التهنئات، وإنَّما كان ينُكر من المأثورات ما كان فيه حجر على الضمائر، أو مُفاخرة بالتَّقوى الكاذبة والنفاق المكشوف، وفيما عدا هذا كان يشُارك أسرته في أفراحها القومية، ويذهب إلى الهيكل، ويأمر بشراء القربان، بل يأمر بسداد الفرضة التي كانت تفُرض على كل رأس من رءوس بني إسرائيل.

وفي سنوات مضت زار بيت المقدس، ولم يذُكر قط أنَّه تخلف عنه في إحدى السنوات منذ بشُر برسالته في الجليل، وكان يذهب مع أصحابه القلائل، ثمُ يعود إلى الجليل دون أن يحس زيارتهم سدنة الهيكل، وذوو الشأن في العاصمة الدينية، ودون أن يشتبك الفريقان في نضال.

لكن كيف يكون الذَّهاب إلى بيت المقدس في هذه السنة؟

إنَّه لا يذهب إلى العاصمة هو وأصحابه كما كانوا يذهبون في السنوات الماضية.

إنَّ هم يعدون الآن بالألوف في أنحاء الجليل، وإذا قدرنا أن نيفًا وثمانين مسيحيًّا يعُدون من التلاميذ، فالمسيحيون الذين لا يعُدون منهم قد يبلغون عشرة أضعاف هذا العدد أو يزيدون.

فكيف يذهب هؤلاء المئات مع معلمهم إلى بيت المقدس خفية يتسللون إليها، ولايعُلنون ولاءهم للمعلم الذي يحج معهم إلى المدينة؟ ولماذا هذا التَّسلل وهذا الاختفاء؟هنا موقف من المواقف التي نسُميها مواقف استلهام الغيب واستخارة الحوادث.

أيذهب إلى بيت المقدس مع مئات التلاميذ والأتباع مُنكرًا لرسالته حذرًا من إعلانها مع هذا الجمع الذي لا يسهل معه التخفي والاستتار؟!

وماذا يقع من أثر التخفي والاستتار في نفوس المؤمنين برسالته الروحية إنْ لمتقل برسالته المسيحية؟!

أيؤمن أحد منهم أن رسالة روحية أو مسيحية تعم العالم في الخفاء، وتستتر لسبب من الأسباب، فضلًا عن السبب الذي يسبق إلى الأذهان لأول مرحلة، وهو الحذروالاتقاء؟!

وجب الذهاب إلى بيت المقدس، ووجبت العلانية، ولا محيد عن الواجبين، ولتكن الآية الإلهية ما تسُفر عنه الحوادث بعد حين.

وأدل شيء على الموقف الأخير في الرسالة المسيحية كان على منهاج السيد المسيح في أمثال هذه المواقف موقف استخارة الحوادث أنَّه عليه السلام سهر ليلة الوداع يصُلي وينُاجي ربَّه قائلًا: «اعبر عنِّي هذه الكأس يا أبتاه، كما تريد أنت لا كم اأريد»... ثم أيقظ تلاميذه النيام، وقال لهم: «اسهروا وصلوا لئلا تدخلوا في تجربة، أما الروح فنشيط، وأما الجسد فضعيف».

وقد أعد عدته لمواجهة أعدائه حيث لا بد أن يوُاجهوه، وأعد العدة لاستبقاء عزيمة تلاميذه، فطفق يهُيئ أذهانهم لاحتمال ما يلُاقونه من بلاء، وصرف عن أذهانهم أنَّها غزوة فتح تنجلي عن غلبة عاجلة على دولة الكهانة الدنيوية، فليوطنوا أنفسهم إذن على أسوأ ما يكون، بل لا ييأسوا إذا غلبهم الضعف فتفرقوا عنه، ولا يخُامرهم الظن أنَّهم إذن قد خسروا المعركة، وانهزموا هزيمة الضياع، فهذا الضعف مقدور يتبعه لا محالة نصر قريب.

وتروي الأناجيل أنَّه عليه السلام دخل إلى بيت المقدس على ظهر أتان، كماجاء في بعض النبوءات عن مركب المسيح الموعود، وأنَّهم كانوا يحملون السعف أمامه،ويفرشون ثيابهم تحت أرجل مطيته، ويهتفون بهُتاف النَّصر الذي يحفظه اليهود منذ الطفولة، ويتغنون به في المواكب والمحافل لذكرى داود، وذكرى مجده المستعاد إلى آخرالزمان.

ويفُهم من وصايا السيد المسيح أنَّه ظل في بيت المقدس يرعى للكهان والفقهاء مكانتهم، ولا يقُلقهم على ما هم حريصون عليه من حقوقها ودعاواها، ففي إحدى هذه الوصايا يقول مُخاطباً الجموع والتلاميذ:»على كرسي موسى جلس الكتبة والفريسيون، فكل ما قالوا لكم أنْ تحفظوه فاحفظوه وافعلوه، ولكن حسب أعمالهم لا تعملوا، لأنَّهم يقولون ولا يفعلون».

ولم تسُمع منه في رواية الأناجيل كلمة واحدة يغير بها ما اختطه لنفسه في حكمتهَ المأثورة عما لقيصر وما لله، فكل ما سمع منه في بيت المقدس يعُيد ما أسلفه منبيان الملكوت الذي يدعو إليه، وأنَّه من غير هذا العالم، ولا شأن له بسلطان التِّي جانوالعروش.

إلا أنَّه من اللحظة الأولى في بيت المقدس لمس مكامن الأشراك التي ترُصد له في كل خُطوة، وعرف من الأسئلة التي كانت تنهال عليه أن القَوم يأتمرون به لإهلاكه، إذ كانت هذه الأسئلة جميعًا تنزع إلى هدف واحد، وهو استدراجه إلى كلمة تثبت العصيان والتَّمرد على

الدولة، أو كلمة تثبت «الكفر» ونقض الشريعة، وكانت أجوبته كلها على ما تعودوه في مواضع العنت والإحراج تستند إلى حُجته، وتستقيم مع غايته ورسالته،وتخُجل من يحُاول إحراجه، وتهتك ما يستره من حجب الرياء، ولا يبعد أنَّه قد سمعَّ من بعض رؤساء الهيكل تفصيل المؤامرة المحبوكة، لأن أحدهم وهو «نيقوديموس» كان يزوره ليلًا، ولعله واحد من كثيرين.

ثمُ حدث ما لا بد أن يحدث في عيد كذلك، بين أنُاس متنمرين، وأناس متجردين لدعوة جديدة يتطوعون لنشرها ويتحمسون لصاحبها، فاشتبك السيد المسيح وسماسرة الهيكل في معركة أدبية لم تلبث أن انقلبت إلى معركة يدوية، فقلب عليه السلام موائد الصيارفة، وباعة الضحايا، وصاح بهم وبسماسرة الهيكل يذكرهم أنَّهم في بيت الله، وأنَّ هم نقلوه من معبد صلاة وطهارة إلى مغارة لصوص.

وكانت هذه هي الوقعة الفاصلة على ما يظهر، وربما سعى إليها السيد المسيح تقريرًا للموقف على وجه من الوجوه، فامتلأت الصدور الموغرة، واتخذت من درء الفتنة ذريعة إلى العمل العاجل، وبدأ العمل على النَّحو الذي تفرقت فيه أقوال النَّقلة والرواة.

وهنا ينتهي دور التَّاريخ ويبدأ دور العقيدة.

فليس للتَّ اريخ كلمة راسخة في خبر من الأخبار التي أعقبت حادثة الهيكل، وحركت كُهانه للبطش والنكاية.

ففي حادثة الاعتقال لا يدري مُتتبع الحوادث من اعتقله ومن دل عليه، وهل كان معروفًا من زيارته للهيكل أو كان مجهولاً لا يهتدي إليه بغير دليل.

وفي حادثة المحاكمة يجري الخبر على أنَّه حُوكم بالليل وصدر الحكم في يوم واحد، ويجري نظام القضاء الموسوي على تحريم المحاكمة الليلية، وإسقاط كل حكم يصدرَّ في قضايا الدم بعد جلسة واحدة في يوم واحد، ولا ينفذ الحكم في هذه القضايا إلا إذا صدر بالإجماع.

وفي حادثة التنفيذ يجري الخبر على أنَّه قد تمَ على الرغم من إعلان الحاكم الروماني براءة المحكوم عليه، ويقول إنجيل يوُحنا إن تسليمه للتنفيذ كان في نحوَّ الساعة السادسة، ويقول إنجيل مرقس إنَّها كانت الساعة الثالثة فصلبوه.

وقد بحث الأستاذ ريشارد هزباند Husband في كتابه «مُحاكمة المسيح» تواريخ عيد الفصح في خمس سنوات من سنة سبع وعشرين إلى سنة ثلاث وثلاثين، فتبين أنَّه كان يوم

خميس سنة ثلاثين، وكان يوم جمعة سنة ثلاث وثلاثين، والأخبار تجري علىَّ أن المُحاكمة والصلب حدثا يوم جُمعة، وأن تناول عشاء الفصح كان مساء خميسي وُافق السادس من شهر أبريل، أما السنوات الأخرى غير سنتي ثلاثين وثلاث وثلاثين،فقد جاء العيد فيها يوم الأربعاء سنة سبع وعشرين، ويوم الإثنين سنة ثمان وعشرين، ويوم الأحد سنة تسع وعشرين، ويوم الثلاثاء سنة إحدى وثلاثين، ويوم الإثنين سنة اثنتين وثلاثين.

ومن الأخبار عن يوم التنفيذ أن الأرض زُلزلت، وأن القُبور تفتَّحت، وَخَرَج منها القديسون يمشون بين النَّاس.

وروى نقَلَة الأخبار أن القبر فُتح في اليوم التَّالي فلم توُجد فيه جثة، وأن السيد المسيح ظهر للتلاميذ مرات، وقال لهم لما توهموا أنَّه طيف: «جسوني وانظروا، فإن الروح ليس له لحم وعظام»، «وسألهم أعندكم هنا طعام؟ فناولوه جزءًا من سمك مشوي، وشيئاً من شهد عسل، فأخذ وأكل»(لوقا 24).

وقد تناول هذا الموضع طائفة من أقطاب العلم واللاهوت كالقس شاين الإنجيلي Cheyne والأستاذ هنريك بوليسPoulus أستاذ اللغات الشرقية بجامعة جينا، والدكتور ويجال المختص بالدراسات الأثرية في مصر والشرق الأدنى، والدكتور هوجو تولTool السويدي، وغيرهم من علماء الدين والدراسات التاريخية، فانتهوا إلى التفرقة في أخبارهذه الفترة بين وجهة التاريخ ووجهة الاعتقاد.

ومن الأخبار التاريخية خبر لا يصح إغفاله في هذا الصدد، لأنَّه محل نظر كبير، وهو خبر الضريح الذي يوُجد في طريق «خان يار» بعاصمة كشمير، ويسُمونه هناك ضريح النَّبي، أو ضريح عيسى، وروى تاريخ الأعظمي الذي دُون قبل مائتي سنة أنَّ الضريح لنبي اسمه «عوس آصاف»، ويتناقل أهل كشمير عن آبائهم أنَّه قَدِم إلى هذها لبلاد قبل ألفي سنة، وينقل المولوي محمد علي في ترجمته للقرآن الكريم عن كِتَابٍ عربي يسُمى «إكمال الدين» محفوظ من ألف سنة عن اسم «عوس آصاف» مذكور فيه، وإنَّه قال عنه إنَّه رحالة ساح في بلاد كثيرة، وإن كتاب «برلام ديو شافاط» في صفحة (١١١) يذكر عن عوس آصاف أنَّه صاحب «بشُرى»، وأنَّهم يحفظون مثلًا من أمثاله في تعليمه يشُبه مثل السيد المسيح عن الزارع والبذور.

ولقد أورد المولوي محمد علي هذا التعليق في تفسير الآية الكريمة:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ المؤمنون: ٥٠.

وأورد تعليقًا يقرب منه في تفسير قوله تعالى:

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ ﴾ آل عمران: ٥٥.

وغيرهما من الآيات القرآنية التي تناولت حياة عيسى ابن مريم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

وبعد فهذا الكتاب مقصور على غرض واحد؟ وهو جلاء العبقرية المسيحية في صورةعصريَّة، نفهمها الآن كما نفهم العبقريات على أقدارها وأسرارها، وقد قل فيها نظيرهذه العبقرية العالية في تواريخ الأزمان قاطبة، ولا يزال هذا الغرض المجيد مُتسعًا للتوفية والتجلية من نواحٍ عدة، فإنْ كُتب لنا أنْ نوفق لزيادة شيء إلى هذه الذخيرة القدسية، فذلك حسبنا وكفى، ولا حاجة بنا في هذه الصفحات إلى إثارة الجدل في مسائل لا ترتبط بالمقصد الذي قصدناه، وقصرنا الرسالة عليه.

ولا نستطيع كما أسلفنا أنْ نقُرر على وجه التحقيق من النَّاحية التَّاريخية كيف كانت نهاية السيرة المسيحية، ولكنَّنا نستطيع أنْ نقُرر على وجه التحقيق أنَّها انتهت في موعدها حيث أسلمها التّاريخ إلينا، فقد كان ذلك الجيل آخر جيل قُدمت فيه دولة العصبية الدينية التي تحتكر هداية لله ورحمته لسلالة واحدة من أبناء آدم وحواءً، وأول جيل عمت فيه الدعوة إلى هداية إلهية تحُيط بكل من يهتدي من بني الإنسان، فلم تنقضِ أربعون سنة حتى تداعت ديانة الأثرة العصبية، وتداعى الهيكل الذي اعتصمت به وتجددت فيه، ثمُ قامت للضمير الإنساني دعوة حيَّة تبسط نورها كما ينبسط نورالشمس لكل ناظر وكل مُتطلع، ولحكمة ما ألهم داعيها أنْ يتسمى كل ما تكلم عن نفسه بابن الإنسان.